تولَّى شبابي كأن لم يكنْ وجاء مشيبي كأنْ لم يَزَلْ
فياليتَ شعْري ممن أكون وما قدَّر الله لي في الأَزَلْ[١]

ذكر وفاته:

توفي ليلة الاثنين حادي عشر رجب، وقد بلغ [من العمر][٢] اثنتين وسبعين سنة وستة أشهر وعشرة أيام، وصُلِّيَ عليه بجامع دمشق، وميدان الحصى، صلَّى عليه القُطْب النَّيسابوري، وحَضَرَ صلاحُ الدِّين الصَّلاة عليه، [سمع ببغداد أبا القاسم هبة الله بن الحصين وغيره، وحج إلى مكة في سنة إحدى وعشرين وخمس مئة، فسمع بها أبا أحمد عبد الله بن محمد بن إسماعيل المصري، وغيره، ثم سافر إلى المشرق، فسمع بنيسابور وغيرها][٢] وكان ولده أبو محمد القاسم يقول: سمع أبي من ألف شيخ وثلاث مئة شيخ وبضع وثمانين امرأة [[٣]وسمع منه الحافظ أبو العلاء الهمذاني وهو أكبر منه، وذكر ابنه القاسم أنه صنف ستين كتاباً، وكانوا يفضلونه على الخطيب، وله بنى نور الدين دار الحديث بدمشق، وعاش ابنه القاسم إلى سنة ست مئة، وتوفي بها، وسنذكره].

وقال الحافظ: أنشدني أبو الفوارس المظفر بن عمر الآمِدِي: [من الطويل]

وَدِدْتُ بأنَّ الدَّهْرَ ينظُرُ نظرةً بعينٍ جلا عنها الغيايةَ نورُها
إلى هذه الدُّنيا التي قد تخبَّطَتْ وجُنَّتْ فساس النَّاسَ فيها حميرُها
فينكِرَ مالا يَرْتضيه محصِّلٌ ويأنفَ أن تُعْزى إليه أمورُها
فقد أبغضتْ فيها الجسومَ نفوسُها مَلالاً وضاقتْ بالقلوبِ صدورُها[٤]

السنة الثانية والسَّبعون وخمس مئة

[حكى[٥] جدِّي ـ رحمه الله ـ أن في هذه السنة تعرَّض رجلٌ لامرأة، فامتنعت عليه إلا أن تدع من ينكحه، فغلب حبُّه لها، فكان يدع من ينكحه ويأتيها]، فقال لها في

(١) «الخريدة»: ١/ ٢٧٥.
(٢) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).
(٣) في (ح): وصنف ستين كتاباً، وله بنى نور الدين بدمشق دار الحديث، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).
(٤) الأبيات في «الخريدة»، قسم شعراء الشام: ٢/ ٤٥٩.
(٥) في (ح): فيها تعرض رجل لامرأة، فامتنعت عليه إلا بالنكاح، فكان يأتيها، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

بعضِ الأيام: قد حَبِلْتُ، فاعملي [لي] دواءً للإسقاط. فعملته له، فولد ولداً، وحضرا مجلس بعض الوعَّاظ، وكتبا إليَّ رُقعةً بصورة الحال، فقال: هذا النِّكاح ما صحَّ لأنَّه تبيَّن أنَّه خُنْثى في حُكْمِ امرأة، لأنَّه يأتي ويُؤْتَى، وعَجِبَ النَّاس من هذا[١].

وفيها بنى مجاهد الدِّين قيماز الخادم النَّائب بالمَوْصل الجامع الذي ظاهرها على دِجْلة، ثم بنى بعده الرِّباط والمدرسة والتُّرْبة والمارَسْتان، وكلُّها متجاورات، ووقَفَ عليها الأوقاف.

وفيها تزوَّج صلاحُ الدِّين بالخاتون عصمة الدِّين بنت الأمير معين الدِّين أُنَر زوجة نور الدِّين محمود، وكانت بقلعة دمشق، زوَّجها منه شرف الدين بن أبي عَصْرون.

وفيها كانت نوبة الكنز، مقدَّم السُّودان[٢] بالصَّعيد، [جمع كلَّ أسود بالصَّعيد، وسار][٣] إلى القاهرة في مئة ألف أسود ليعيد الدَّولة المِصْرية، فخرج إليه الملك العادل [سيف الدين][٣]، وأبو الهيجاء الهَكَّاري، وعِزُّ الدِّين موسك، والتقوا، فَقُتِلَ الكنز ومَنْ معه، فيقال: إنهم قتلوا منهم ثمانين ألفاً، وعادوا إلى القاهرة، فقال العماد الكاتب: قُتِلَ الكَنْز، وما انتطحَ فيه عَنْز.

وفيها سار صلاحُ الدِّين إلى مِصْر، واستناب أخاه شمسَ الدَّولة على الشَّام، وجاءت الفرنج إلى داريا، فأحرقوا ونهبوا، وعادوا.

وفيها أمر صلاحُ الدِّين قَرَاقُوش بعمارة سور على القاهرة ومِصْر، وضيَّع فيه أموالاً عظيمة، ولم ينتفع به أحد.

---

(١) «المنتظم»: ١٠/ ٢٦٩.

(٢) نوبة الكنز كانت في سنة (٥٧٠هـ)، وبنو الكنز أصلهم من ربيعة بن نزار بن مَعَدّ، كانوا ينزلون اليمامة، وقدموا مصر في خلافة المتوكل على الله أعوام بضع وأربعين ومئتين، ونزلت طائفة منهم بأعالي الصعيد، وأسسوا ثمة إمارة عربية كانت أسوان مقراً لها، واعترف الفاطميون بهذه الإمارة، وفي زمن الحاكم بأمر الله كان أميرهم هبة الله بن محمد بن علي المعروف بالأهوج المطاع، وهو الذي ظفر بأبي ركوة الأموي الخارج على الحاكم، فأكرمه الحاكم ولقبه كنز الدولة، فصار لقباً لكل أمير فيهم، حتى كان آخرهم هذا. انظر «البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب» للمقريزي: ٤٤-٤٦، و«الطالع السعيد»: ٣٠، وانظر «الروضتين»: ٢/ ٣٣٧-٣٣٩.

(٣) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

وفيها أبطل صلاحُ الدِّين المكوس التي كانت تؤخذ من الحاج بجُدَّة مما يحمل في البحر، وعوَّض صاحب مكة عنها في كل سنة ثمانين ألف إرْدَبّ[١] قمحاً تحمل إليه في البحر، [ويحمل مثلها][٢] فَتُفَرَّق في أهلِ الحرمين.

وفيها عمر صلاح الدين مدرسة الشَّافعي بالقَرَافة بتولي النَّجم الخبُوشاني، وعمر المارَسْتان في القَصْر، ووقف عليهما الأوقاف.

وحجَّ بالنَّاس من الشَّام قيماز النَّجْمي.

وفيها توفي

عليُّ بنُ منصور، أبو الحسن السَّرُوجي الأديب[٣]

مؤدِّبُ أولاد أتابك زَنْكي بن آق سُنْقُر [وذكره ابن عساكر، وقال:][٤] كان يأخذ الماء بفِيه، ويكتبُ به على الحائط كتابةً حسنة كأنَّها كُتبت بقلم الطُّومار، ويُنَقِّط ما يكتب ويُشْكِلُه.

ومن شعره في فصل الربيع، وفضل دمشق، ومَدْح نور الدِّين: [من البسيط]

فصلُ الرَّبيعِ زمانٌ نورُه نورُ ... أنفاسُ أشجاره مِسْكٌ وكافورُ
جاءت به الأرضُ تُجْلى في ملابسها ... فحارَ مِنْ حُسْنها في الجَنَّةِ الحورُ
تظلُّ تشدو بها الأطيارُ من طَرَبٍ ... فذا هزارٌ وقُمريٌّ وزرزورُ
كأنَّ أصواتَها فوقَ الغُصون ضحًى ... زيرٌ وبمٌّ ومِزْمارٌ وطُنْبُورُ
تميل أغصانُها وجداً إذا سَجَعَتْ ... وُرْقُ الحمام وغنَّتها الشَّحاريرُ
يا لائمي في دمشقَ إنَّ لومك لي ... لومٌ وتشبيهك الزورا بها زُورُ
كأنَّها جنَّةٌ للخُلْد دانيةٌ ... قطوفُها فُتحتْ فيها المقاصيرُ
في كلِّ قطر بها للعِلْم مدرسة ... وجامعٌ جامعٌ للدِّينِ معمورُ
يُتلى القرانُ به في كلِّ ناحيةٍ ... والعِلْمُ يذْكَرُ فيه والتَّفاسيرُ
تكامَلَ الحسنُ فيه مثلما كَمُلَتْ ... أوصافُ مولى بنَشْر العَدْل مشهورُ

---

(١) الإردب يساوي أربعاً وعشرين صاعاً. انظر «القاموس المحيط» (ردب).

(٢) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٣) له ترجمة في «الوافي بالوفيات»: ٢٢/٢٣٨-٢٣٩، و«النجوم الزاهرة»: ٦/٧٩، و«الدارس»: ٢/٤١٦، ولم أقف على ترجمته في «تاريخ ابن عساكر».

للدِّين والمُلْك والدُّنْيا بأجمعها ... ولـلـخـلـيـفـة مـن أنـوارِه نـورُ
كهف الغريب[١] وكنز للضَّعيف فما ... لـلـمُـعْـتـفي عـنـه تـقـديـمٌ وتـأخـيـرُ
مـولاي يـا خـيـر مـن يـدعـى لـمـكْـرُمـة ... وخـيـر مـن زانـه عَـقْـلٌ وتـوقـيـرُ
عشْ وابقَ واسْلَمْ ومُرْ واحْكُمْ ودُمْ أبداً ... مـا سـحَّ غـيـثٌ ومـا هـبَّـتْ أعـاصـيـرُ

وقيل: إنَّه ماتَ سنة سبعين وخمس مئة.

محمد بن سعيد[٢]

ابن محمّد، أبو سعيد ابن الرَّزَّاز، العَدْل.

ولد سنة إحدى وخمس مئة ببغداد، وسمع الحديث، وكان أديباً، فاضلاً، وتوفي في ذي الحِجَّة، كتب إليه صديق له مكاتبة، فكتبَ جوابها: [من البسيط]

يـا مَـنْ أيـاديـه يـعـيـا مـن يُـعـدِّدُهـا ... ولـيـس يُـحْـصـي مَـدَاهـا مـن لـه يَـصِـفُ
عـجـزتُ عـن شـكـر مـا أَوْلـيـتَ مـن كـرمٍ ... وصـرتُ عـبـداً ولـي فـي ذلـك الـشَّـرفُ
أهـدَيْـتَ مـنـظـومَ شـعـرٍ كـلـه دُرَرٌ ... وكـلُّ نـاظـمِ عِـقْـدٍ دونـه يَـقِـفُ
إذا أتـيـتَ بـبـيـتٍ مـنـه كـان لـه ... قـصـراً ودُرّ الـمـعـانـي فـوقـه شُـرُفُ
وإنْ أتـيـتُ أنـا بـيـتـاً يـنـاقـضـه ... أتـيـتُ لـكـن بـبـيـتٍ سَـقْـفُـه يَـكِـفُ
مـا كـنـتُ مـنـه ولا مـن أهـلـه أبـداً ... وإنـمـا حـيـن أدنـو مـنـه أقـتـطِـفُ

محمد بن مسعود[٣]

أبو المعالي [ابن القَسَّام الأصبهاني، شاعر فصيح][٤] خرج إلى الحج، فتوفي بفَنْد[٥]، [وذكره العماد، وأنشد من شعره يذم قاضياً بهذه الأبيات][٦]: [من الوافر]

---

(١) في (م) و(ش): «الفقير».

(٢) له ترجمة في «المنتظم» ١٠/ ٢٦٨، و«طبقات الشافعية» للسبكي: ٦/ ١٠٤-١٠٥، و«الوافي بالوفيات»: ٣/ ١٠١.

(٣) له ترجمة في «خريدة القصر» قسم شعراء أصفهان: ١/ ٢٤٣-٢٨٣، و«معجم الأدباء»: ١٩/ ٥٥، و«الوافي بالوفيات»: ٥/ ٢٣، و«النجوم الزاهرة»: ٦/ ٧٩، و«بغية الوعاة»: ١/ ٢٤٤.

(٤) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٥) اسم جبل بين مكة والمدينة، قرب البحر، «معجم البلدان»: ٤/ ٢٧٧.

(٦) في (ح): ومن شعره، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

ولـمـا أنْ تـولَّـيْـتَ الـقـضـايـا وفـاضَ الـجَـوْرُ مـن كَـفَّـيْـكَ فَـيْـضـا
ذُبـحـتَ بـغـيـرِ سِـكِّـيْـنٍ وإنـي لأرجـو الـذَّبْـحَ بـالـسِّـكِّـيـنِ أيـضـا[1]

محمد بن عبد الله[2]

ابن القاسم، أبو الفضل، كمال الدين بن الشَّهْرُزُوري.

قاضي دمشق والشَّام، ولد سنة اثنتين وتسعين وأربع مئة، وقدم بغداد، فتفقَّه على أَسْعد المِيْهَني بالنِّظامية، وسَمِعَ [[3] الحديث ببغداد والمَوْصِل، وكان رئيس أهل بيته، وولي قضاء القضاة بدمشق وحمص وحماة وحلب وجميع الشام في أيام نور الدين بن زنكي]، وكان إليه في أيام نورِ الدِّين مع القضاء أمرُ المدارس والمساجد والأوقاف والحِسْبة والأمور الدينية والشَّرعية، وكان صاحبَ القلم والسَّيف، و[كانت][4] شِحْنِكيَّة دمشق إليه، ولَّى فيها بعض غِلْمانه، ثم ولاها نورُ الدِّين لصلاحِ الدِّين، وكانت بينهما مضاغنة، وكان كلُّ واحد ينقض حُكْم الآخر، فلما كاتبه صلاح الدِّين على أن يساعده على أَخْذ دمشق أعانه، وفَتَحَ له أبوابها، فلما دَخَلها صلاح الدين مشى إلى داره، وطيَّب قلبه، [وقد ذكرناه.

وذكره العماد في «الخريدة» بمعنى ما ذكرنا، وقال][4]: كان فاضلاً، جَوَاداً سَمْحاً، دَيِّناً عفيفاً، ذا مروءةٍ ظاهرة، وصدقات دارَّة وافرة، وبرٍّ متَّصل؛ جاء إلى الشيخ أحمد والد الشيخ أبي عمر شيخ الحنابلة، وأحمد أوَّل من سَكَنَ منهم قاسيون، فزاره ومعه ألف دينار، فدفعها إليه، فامتنع الشيخ أحمد من أَخْذِها، فاشترى كمال الدِّين قرية الهامة بوادي بردى، ووقَفَ نصفَها على الشيخ أحمد، والمقادسة، والنِّصف الآخر على الأُسارى، وهي باقيةٌ إلى هلمَّ جرّا.

---

(١) «الخريدة»: ١/ ٢٤٥.

(٢) له ترجمة في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٢/ ٣٢٣-٣٢٧، و«المنتظم»: ١٠/ ٢٦٨، و«الكامل» لابن الأثير: ١١/ ٤٤١، و«كتاب الروضتين»: ٢/ ٤٢٦-٤٢٨، و«وفيات الأعيان»: ٤/ ٢٤١-٢٤٤، و«المختصر المحتاج إليه»: ١/ ٥٥، و«سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ٥٧-٥٨، وفيه تتمة مصادر ترجمته.

(٣) في (ح): وسمع بها وبالموصل، وكان رئيساً، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٤) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

ذكر وفاته

كان بينه وبين شَرَفِ الدِّين بن أبي عَصْرُون ما يكون بين أبناء الدُّنيا على المناصب، وكان نورُ الدِّين يفضِّله على ابنِ أبي عَصْرون، وهو عنده بمنزلةِ الوزير، وبعث به إلى بغداد رسولاً، فكتَبَ إلى الخليفة المقتفي ورقة يقول: المملوك محمد بن عبد الله الرَّسول. فكتَبَ المقتفي عليها: ﷺ.

وكان ابنُ أبي عَصْرون أقومَ منه بالفتوى، فلما مرض وبلغ ابن أبي عصرون وهو بحلب قَدِمَ دمشق، فدخل عليه وعانقه وبكيا، فلما مات تولى ابن أبي عَصْرون أمره، وخرج في جِنازته ماشياً؛ هو وجميع الملوك مشاة: سيف الإسلام، وتقي الدين عمر، وشمس الدولة، وغيرهم، وصُلِّيَ عليه بجامع دمشق، وحُمِلَ إلى قاسيون، فدفن في سَفْحه قريباً من الجادة عند مسجد البصارو، ولم يكن عنده من أولاده أحد، وإنما كان عنده ابنُ أخيه ضياء الدِّين أبو الفضائل.

وكان كمال الدين قد تصدَّق بجميع ما كان عنده، وأوصى بماله، ووقف أوقافاً كثيرة على أبواب البر، وقيل: إنه لم يكن له كفن، فكُفِّنَ في إحرامه، وكانت وفاته سادس المحرَّم.

وأوصى بالقضاء إلى ابن أخيه ضياء الدِّين مع وجود ولده، فآثَرَ صلاحُ الدين أن يولي القضاءَ شَرَفَ الدين بن أبي عَصْرون من غير أن يعزل ضياء الدين، وأفضى بسرِّه إلى الفاضل، وما كان صلاح الدين يمكنه عزله خوفاً من الشَّناعة ولا يصرِّح، بل يقول: هذا الشيخ ابن أبي عصرون شيخ الشَّافعية ماله منصب، أريد منصباً أُولِّيه. ففهم ضياءُ الدِّين، فكتبَ إلى صلاح الدين يستعفي من القضاء، فأعجبه ذلك، وزاد في إقطاعه، وبعثه رسولاً إلى الخليفة.

وولى ابن أبي عصرون القضاء، وأمره أن يستنيب أبا المعالي محيي الدِّين محمد بن زكي الدِّين، فاستنابه بتوقيعٍ من صلاح الدِّين، وأقام ابن أبي عصرون قاضياً إلى أن ضَعُفَ بصره، فأشار الفاضل بتولية أبي حامد محمّد[1]، واستمرَّ إلى سنة سبعٍ وثمانين وخمس مئة، فصُرِفَ، واشتغل محيي الدين محمّد بن زكي الدِّين بالقضاء.

---

(١) هو ابن شرف الدين بن أبي عصرون، وقد توفي سنة (٦٠١هـ).

ومن شعر كمال الدين الشَّهْرُزُوري: [من الطويل]

وجاؤوا عشاءً يُهْرعَون وقد بدا ... بجسميَ من داء الصَّبابةِ ألوانُ
فقالوا وكلٌّ مُعْظِمٌ بعضَ ما أرى ... أصابتك عينٌ قلت إن وأجفانُ

وقال: [من الكامل]

ولقد أتيتكَ والنُّجومُ رواصدٌ ... والفجرُ وهمٌ في ضمير المَشْرِقِ
وركبتُ مِ الأهوال[1] كلَّ عظيمةٍ ... شوقاً إليك لعلَّنا أن نلتقي

[2] وكان لكمال الدِّين ولد اسمه محمد بن محمد بن عبدالله، ولقبه محيي الدين، وكان أبوه [عيَّنه][3] قاضياً على حلب، ولما مات كمال الدين رثاه بأبيات[4].

وكان للقاضي كمال الدين ثلاثة إخوة، أحدهم اسمه يحيى بن عبدالله، مات سنة نيف وستين وخمس مئة.

والآخر القاسم بن عبدالله، ولقبه شمس الدين، ولي قضاء الموصل، وكان يعظ، وله كلام حسن وقبول، وتوفي في سنة ثلاثين وخمس مئة، وقد ذكرناه هناك.

والثالث سعد بن عبد الله، نذكره في سنة ست وسبعين وخمس مئة، إن شاء الله].

السنة الثالثة والسبعون وخمس مئة

فيها وصل تتامش الذي عصى على الخليفة، وقاتل مع قطب الدين قيماز إلى تحت التَّاج، وبيده سيفٌ وكَفَنٌ، وقبَّل الأرض مراراً وطلب العفو، فعفا الخليفةُ عنه، وأعيد إلى إمرته، وأحسنَ إليه.

وفيها تغيَّر الخليفة على الوزير ابن رئيس الرؤساء، وخرج إلى الحج، فقُتِل، وسنذكره إنْ شاء الله.

---

(١) في (ح): وركبت هول هوال، والمثبت من «الخريدة».

(٢) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٣) مابين حاصرتين زيادة من عندنا يقتضيها السياق.

(٤) منها:

ألموا بسفحي قاسيون فسلِّموا ... على جدث بادي السنا وترحموا

انظر القصيدة بتمامها في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٢/ ٣٣٦-٣٣٩.